International Journal for Scientific Research (IJSR)
المجلة الدولية للبحوث العلمية
IJSR
Vol. (4), No. (7) July 2025 الإصدار (4)، العدد (7)

التفكر في القرآن الكريم: الظواهر الكونية أنموذجاً

مريم حسين علي محمد السادة
دكتوراه في الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر
أكاديمية، وباحثة في الدراسات القرآنية، الدوحة، قطر
m.alsada66@gmail.com

ملخص البحث

يتلخص هذا البحث في بيان منهج القرآن الكريم في التفكر من خلال توضيح مفهوم التفكر في اللغة والاصطلاح، وتوضيح أهمية التفكر، وأساليب تنميته، والظواهر الكونية التي تدعو إلى التفكر، وقد تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج الوصفي، كونه المنهج الأكثر ارتباطاً بموضوع البحث.

ومن أهم النتائج التي تمخضت عن هذا البحث: التفكر من أهم العبادات التي يتقرب بها الإنسان من خالقه، هذا وتم ورود العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تبين مظاهر التفكر الكونية، بمختلف الأساليب التي تدعو إلى التفكر والتعقل في الكون، وإدراك عظمة الخالق وبديع صنعه، وعجائب قدرته، بالإضافة إلى ثناء القرآن الكريم لمن يتفكر في خلق الله سبحانه وتعالى.

الكلمات المفتاحية: التفكر، التأمل، التعقل، التدبر، النظر.

Reflective Thinking in the Holy Qur'an: A Model Based on Cosmic Phenomena

Maryam Hussain Ali M Alsada
PhD in Islamic Studies and Contemporary Social Issues
Academic and Researcher in Qur'anic Studies, Doha, Qatar
m.alsada66@gmail.com

Abstract

This research summarizes the Holy Qur'an's approach to thinking, highlights the importance of thought, and explores its universal manifestations and methods of development as presented in the Holy Qur'an. The descriptive methodology has been used in this research, as it is the most appropriate for the subject matter.

The study concludes with several key findings, including:

- Reflective thinking is regarded as a profound act of worship through which individuals draw nearer to their Creator.
- The Holy Qur'an consistently praises those who engage in contemplation of the signs and creations of God.

Keywords: Reflective Thinking, Deliberation, Meditation.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الكون بنظام، والصلاة والسلام على خير الأنام، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام، أما بعد:

فمن أهم متطلبات الإيمان التدبر في الآيات القرآنية الكريمة والتفكر في معانيها، والامتثال بما جاء فيها من أوامر واجتناب النواه، واستشعار نعم الخالق سبحانه وتعالى وآلائه؛ فالله سبحانه وتعالى صاحب الفضل، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلا، الذي أوجد الإنسان من العدم وأسبغ عليه من النعم، وجمل جميع ما حوله وكل ما في الوجود، وهو مع الإنسان دائماً أين ما كان وحيث ما وجد، العالم بالسرائر والخبير بالظواهر، وهو سبحانه المتفرد بالملك وحده لا شريك له، له الطاعة والخضوع والذل، يقول تعالى: ﴿**أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسجُدُ لَهُ مَن فِي السَّماواتِ وَمَن فِي الأَرضِ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجومُ وَالجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوابُّ وَكَثيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثيرٌ حَقَّ عَلَيهِ العَذابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِن مُكرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ** ۝﴾ [الحج: ١٨]؛ حيث يعتبر السؤال الوارد في هذه الآية الكريمة استفهامًا تقريريًا يفيد العلم بأن لله سبحانه وتعالى يسجد جميع من في السماوات والأرض، بمعنى ألم تعلم أيها الإنسان أن الله سبحانه وتعالى الذي نظم حياتك، ورتب علاقاتك مع نفسك ومع غيرك من الناس، بل وحتى نظم علاقتك مع الكون، ووضح ماهيتها وكيفيتها، ووضع الأدلة الصريحة التي تؤكد على ربوبيته ووحدانيته، ومظاهر قدرته، أنه تسجد له جميع الكائنات المنتشرة والمستخفية في الأرض والسماء؛ فوجب عليك أيها الإنسان الخضوع والانكسار بين يديه، ودعائه ومناجاته، وأن تؤثر حبه على حب نفسك، أو حب أي شيء آخر.

ومن خلال التأمل في آيات الذكر الحكيم نرى العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو إلى التفكر والتعقل في خلق الله جل في علاه، والتفكر في الأنفس والآفاق والكون، وهذا ما سيتم التطرق إليه في هذا البحث.

1. مشكلة البحث

تدور مشكلة البحث حول الإجابة عن التساؤلات الآتية:

التساؤل الرئيسي: ما مدى أثر منهج القرآن الكريم في التفكر، كما يتفرع من هذا السؤال أسئلة فرعية أخرى، منها:

- ما هو مفهوم التفكر؟
- ما هي منهجية القرآن الكريم في التفكر؟
- ما هي الظواهر الكونية التي تدعو إلى التفكر؟

2. فرضيات البحث

هناك العديد من الفرضيات التي قد يفترضها البحث، منها:

- وجود العديد من الألفاظ التي تدل على التفكر.
- للمنهج القرآني أثر في تنمية التفكر.
- للتفكر في الظواهر الكونية أثر في تثبيت الإيمان.

3. أهداف البحث

- بيان منهج القرآن الكريم في التفكر.
- توضيح مظاهر التفكر الكونية في القرآن الكريم.
- المساهمة في تنمية التفكر في الظواهر الكونية.

4. أهمية البحث

- التفكر في خلق الله سبحانه وتعالى والآيات الكونية من أهم العبادات التي تقوي الإيمان.
- يُعد التفكر من الأمور التي دعت إليها المنهجية القرآنية في العديد من المواضع.
- الحاجة إلى التذكير بالتفكر بشكل مستمر وعدم الإغفال عن هذه العبادة العظيمة.

5. منهج البحث

- يعتمد البحث على المنهج الوصفي (Descriptive Method) كونه المنهج الأكثر تناسباً مع الدراسات الإنسانية، نظراً لما يقوم به من جمع معلومات حول نظرية أو جدوى معينة، ثم تصنيفها، وتحليل ما فيها؛ حيث يعرف المنهج الوصفي بأنه: "أسلوب من أساليب التحليل المركزي على معلومات عن ظاهرة أو موضوع محدد، أو فترة زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية، ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة [1]"، وهذا ما تم استخدامه في هذا البحث الذي سيتم من خلاله وصف منهج القرآن الكريم في تحديد مفهوم التفكر، وعرض الآيات القرآنية الكريمة التي تعنى بالتفكر في الظواهر الكونية، وتصنيفها، وتحليل ما فيها.
- جمع الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن موضوع التفكر، وتصنيفها حسب موضوعاتها في مباحث البحث.
- عزو الآيات القرآنية الكريمة الواردة في البحث بذكر اسم السورة، ورقم الآية في كل موضع ترد فيه الآية الكريمة.

6. محتويات البحث

يحتوي البحث على مقدمة، ومبحثين على النحو الآتي: المبحث الأول: مفهوم التفكر، والمبحث الثاني: التفكر في الآيات الكونية، كما يحتوي على خاتمة تشتمل على النتائج والتوصيات، وقائمة مصادر ومراجع.

المبحث الأول: مفهوم التفكر

1. في اللغة:

من خلال البحث في كتب اللغة والمعاجم يتضح أن أصل التفكر قائم على الحروف الثلاثة: الفاء، والكاف، والراء، ومن دلالات هذا الجذر: التأمل، وتردد القلب، وإعمال الخاطر، والنظر، والتدبر، والعبرة، والرحلة، وترتيب الأمور في الذهن؛ حيث جاء في كتب اللغة: "التَفَكُّرُ: التأملُ، والاسم الفِكْرُ والفِكْرَةُ، والمصدر الفَكْرُ بالفتح[1]". ويقول ابن فارس: "(فكر) الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء،

[1] دويدري، رجاء وحيد، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية، ص183.
[1] الجوهري، الصحاح، ج2، ص783.

يقال تفكر إذا ردد قلبه معتبراً. ورجل فكير: كثير الفكر [2]". والفكر: "إعمال الخاطر في الشيء، والفكرة: كالفكر وقد فكر في الشيء، وأفكر فيه وتفكر بمعنى. ورجل فكير كثير الفكر، والتفكر اسم التفكير. والتفكر الاسم الفكر والفكرة، والمصدر الفكر، بالفتح [3]" والفكر: "النظر والتدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر فكر أي نظر وروية والفكر بالفتح مصدر فكرت في الأمر من باب ضرب وتفكرت فيه وأفكرت بالألف، والفكرة اسم من الافتكار مثل العبرة والرحلة من الاعتبار والارتحال، وجمعها فكر مثل سدرة وسدر ويقال الفكر ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً [4]".

2. في الاصطلاح:

من خلال النظر في المعنى اللغوي يتضح أن التفكر في اللغة يتمثل في التأمل، وتردد القلب، وإعمال الخاطر، كما يلتقي معنى التفكر في اللغة مع المعنى الاصطلاحي؛ حيث جاء تعريفه اصطلاحاً، أنه: "جولان القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب [5]"

ويعرف الجرجاني التفكر بأنه: "تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب، وهو سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء وقيل: التفكر: تصفية القلب بموارد الفوائد، وقيل: مصباح الاعتبار، ومفتاح الاختيار، وقيل: حديقة أشجار الحقائق، وحدقة أنوار الدقائق، وقيل: مزرعة الحقيقة، ومشرعة الشريعة، وقيل: فناء الدنيا وزوالها، وميزان بقاء الآخرة ونوالها، وقيل: شبكة طائر الحكمة، وقيل: هو العبارة عن الشيء بأسهل وأيسر من لفظ الأصل [6]".

3. التفكر في القرآن الكريم:

"ورد لفظ التفكر في سبع عشرة آية، بينما ورد لفظ (الفكر) في آية المدثر وحدها [1]"، بالإضافة إلى ورود ألفاظ مشابهة للتفكر كالتعقل، والتدبر، وهذا يؤكد أهمية التفكر في حياة الإنسان، وما يدعو إليه من طاعة الخالق، ورسوخ الإيمان.

---

[2] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص446.
[3] ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ج5، ص65.
[4] أبو العباس، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج2، ص479.
[5] الراغب الأصفهاني، المفردات، ص643.
[6] الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، ص157.
[1] المجالي، محمد خازر، مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم دراسة موضوعية، ص43.

هذا وتمثل منهجية القرآن الكريم مرجعية فكر الإنسان في جميع أموره الحياتية بما فيها عمران الوجدان، وعمارة البنيان؛ حيث يدعو المنهج القرآني إلى توظيف الفكر، والجد، والاجتهاد، وإمعان النظر من أجل النهوض بالحضارة الإسلامية، والارتقاء بالمستوى المعيشي. وجاءت العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد ضرورة استخدام العقل، والفكر؛ كأداة نافعة لا يُستغنى عنها في بناء الحضارة؛ فمثلاً نرى في القرآن الكريم تكرار ورود: ((أولم يسيروا))، وفي هذا دلالة واضحة إلى دعوة القرآن الكريم لاستكشاف سنن الكون، وقوانينه التي تحكمه، وأثرها في العمران والحضارة، ومن تلك الآيات الكريمة، قوله تعالى: ﴿**أَوَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم كانوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَأَثارُوا الأَرضَ وَعَمَروها أَكثَرَ مِمّا عَمَروها وَجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ**﴾ [الروم: ٩]؛ ففي الآية الكريمة دعوة إلى النظر، والتأمل في أحوال الأمم السابقة، وآثارها الخاصة بالقوة الحربية، وموارد الثروة الزراعية، وسائر شؤون العمران، وكيف كان عاقبة ذلك وأسبابه، ليعلم أن القوة والثروة لا تحول دون هلاك الأمة إذا استحقت ذلك بالظلم، وكفر النعمة [2].

كما قال تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**﴾ [العنكبوت: ٢٠]، من خلال الآية الكريمة يمكننا إدراك ماهية الفكر الإسلامي في الحضارة؛ الذي يبدأ في الحث على التأمل في ملكوت السماوات والأرض، والإعجاز الإلهي في الخلق، ثم يدعو إلى التفكر في الأقوام السابقة، وما أقاموه من عمارة وبناء، وما شيدوه من صروح وقلاع، وما آلوا إليه نتيجة ما قدمت أيديهم، "والبشرية مطالبة بأن تسخر كل إمكاناتها المادية والعلمية في إظهار تجليات الله عز وجل ووحدانيته في أفعاله الكونية والنفسية، لأن الخطاب القرآني خطاب عام للبشرية كلها في أن تبحث، وتبصر، وتنظر، وتفكر، وتجرب، وتقيس [3]".

وقال تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُجرِمينَ**﴾ [النمل: ٦٩]؛ تؤكد الآية السابقة أنه على أساس إمعان النظر، وتمحيص الفكر؛ تنتج الرغبة في ممارسة الخلافة بالشكل المطلوب،"فبقدر التفكر في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله، وآياته في الأنفس والآفاق، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات، يكون ارتقاء الناس في العلوم والأعمال، من دينية ودنيوية [4]"، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلناكُم خَلائِفَ فِي الأَرضِ مِن بَعدِهِم لِنَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ**﴾ [يونس: ١٤]. ولا شك أن تطور الإنسان الذي يعتبر عضواً أساسياً في تقدم المجتمع وازدهاره يكون من خلال إمعان النظر في إمكانياته، ومحاولة تعزيزها، لما يخدم ذاته ويخدم غيره تحت نظام إسلامي ينهض بالإنسان نفسه

[2] رشيد رضا، تفسير المنار، ج8، ص256، بتصرف يسير.
[3] شريف، مروان محمد، طرائق تنمية التفكير في القرآن الكريم، ص64.
[4] رشيد رضا، تفسير المنار، ج9، ص343.

والمجتمع الذي يعيش فيه، ويحدد المنهجية التي يسير عليها لتحقيق الأهداف المرجوة من تقدم وازدهار، مستمداً من منهجية القرآن الكريم، والتي تدعو إلى النظر والتفكر في نعم الخالق وآلائه؛ فما هي فائدة القلب وهو كالحجر الصلب، وما هي فائدة البصر وهو خالي من النظر، قال تعالى: ﴿**أَفَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَتَكونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلونَ بِها أَو آذانٌ يَسمَعونَ بِها فَإِنَّها لا تَعمَى الأَبصارُ وَلكِن تَعمَى القُلوبُ الَّتي فِي الصُّدورِ**﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا لا شك يعطي الإنسان الأمل والحافز الذي يجعله لا يقف عند محدودية الدنيا بل يتعداها ليصل إلى الآخرة؛ فيعمل من أجل تحقيق ما يضمن له السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرونَ ۝ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ**﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠] "فهذا البيان لاستجاشة التفكر والتدبر في أمر الدنيا والآخرة؛ فالتفكر في الدنيا وحدها لا يعطي العقل البشري ولا القلب الإنساني صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها [1]".

وقال تعالى: ﴿**إِنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ مِمّا يَأكُلُ النّاسُ وَالأَنعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَها وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرونَ عَلَيها أَتاها أَمرُنا لَيلًا أَو نَهارًا فَجَعَلناها حَصيدًا كَأَن لَم تَغنَ بِالأَمسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ**﴾ [يونس: ٢٤]؛ "فالقرآن الكريم يهدف إلى أن يصل الإنسان من خلال تفكره إلى أحكام صائبة، مبنية على استدلال صحيح، ومن هنا فهو يعيب على المشركين الذين لم يقدهم تفكيرهم إلى الصواب، ولم يصلوا إلى أحكام ونتائج منسجمة مع مقدماتها [2]".

كما دعا القرآن الكريم إلى التفكر والتعقل في خلق الله تعالى، والسير في الأرض والسعي في إصلاحها، ولفت النظر إلى سنن الأمم السابقة لأخذ العبرة والعظة واكتشاف السنن الإلهية من خلالها، فبالتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، والنظر فيها بعين الاعتبار: تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله سبحانه به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة [3]؛ قال تعالى: ﴿**لَو أَنزَلنا هذَا القُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشيَةِ اللَّهِ وَتِلكَ الأَمثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ**﴾ [الحشر: ٢١]؛ ففي التفكر في القرآن الكريم وما فيه من قصص وأمثال، والتفكر في خلق الله سبحانه، والتفكر في الأمم السابقة الأثر البالغ في تقدم الإنسان، وتقدم حضارته. ويعتبر الأسلوب القصصي، والدعوة إلى التفكر في حال الأمم السابقة وأسباب إهلاكهم وتدمير حضاراتهم من أهم الأساليب القرآنية؛ لما لهذا الأسلوب من تأثير بالغ على الإنسان وعلى طريقة تفكيره،

[1] سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ج1، ص231.
[2] الهيشان، محمود محمد، جوانب الفكر والتفكر في القرآن الكريم، ص34.
[3] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص358، بتصرف يسير.

ولما تحتويه من عناصر تشويق تجذب العقل، وتمتع العاطفة في ذات الوقت نفسه، ولما تحمله من تجارب سابقة يتم الكشف من خلالها عن مكامن القوة والضعف؛ فالقرآن الكريم يقص على القارئ من القصص ما يبين تاريخ الإنسان ودوره الحضاري رابطاً التوجيهات الإلهية التي تدعو إلى النظر والتفكر واكتساب الخبرة الكافية حول تلك النماذج القصصية، وأخذ العبرة والعظة منها، والاستفادة منها، وتطبيقها على أرض الواقع، قال تعالى: ﴿**لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

هذا ويعد التفكر من صفات أولي الألباب الذين أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم، قال تعالى: ﴿**أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ فِي الأَرضِ ثُمَّ يُخرِجُ بِهِ زَرعًا مُختَلِفًا أَلوانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطامًا إِنَّ في ذلِكَ لَذِكرى لِأُولِي الأَلبابِ**﴾ [الزمر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿**أَوَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم كانوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَأَثارُوا الأَرضَ وَعَمَروها أَكثَرَ مِمّا عَمَروها وَجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ**﴾ [الروم: ٩]؛ نلتمس من الآية الكريمة الأمر بالسير في الأرض والنظر والتفكر بقصص الأمم السابقة وما تحمل من دروس وعبر؛ فمنهم من عاش تحت التقدم العمراني والحضاري الذي كانوا يشهدونه إلا أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً، حيث بعث الله سبحانه وتعالى إليهم الرسل ليبينوا لهم الحقائق، ويرسموا لهم الطريق المستقيم، ويوضحوا ما لهم وما عليهم، ولكن أخذتهم العزة بأنفسهم وغرتهم قوتهم، فأتاهم العذاب بما قدمت أيديهم، وبظلمهم وفسادهم وعلوهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

ونرى تكرار ذكر قوله تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ**﴾ في أربع مواضع من القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ ثُمَّ انظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ**﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُجرِمينَ**﴾ [النمل: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿**قُل سيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلُ كانَ أَكثَرُهُم مُشرِكينَ**﴾ [الروم: ٤٢]، ومن الملاحظ أن جميع الآيات السابقة جاءت تأمر بالنظر والتفكر والتأمل بغرض الإرشاد والتوضيح سواء كان ذلك التفكر حول حال الأمم السابقة وما حل عليها من صنع أيدي ساكنيها المكذبين والمجرمين والظالمين وبأنعم الله سبحانه جاحدين، أم كانت الدعوة بالتفكر في خلق الله سبحانه وتعالى الذي أبدع كل شيء صنعاً، وهذا لا شك يؤدي إلى إمعان النظر بتلك النماذج وما تحمله من حضارات عمرانية ومبان سكنية أصبح مصيرها الهلاك بسبب فساد أهلها، وبالتالي يؤدي ذلك التفكر إلى الابتعاد عن ما كانوا عليه من صفات ذميمة.

ومن خلال تأملنا في الآيات القرآنية الكريمة التي جاء فيها: ((وسخر لكم))، نستشعر تأكيد هذا التسخير لجميع الناس، والفضل الذي يعود عليه؛ مما قد يفتح الآفاق المعرفية نحو تلك الأمور المسخرة والتعرف عليها، والغوص في معالمها؛ وهذا يؤدي إلى إدراك حقيقة النعم التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، والتي قد تدفعه إلى مقابلتها بشكر الخالق سبحانه وتعالى، والإيمان به، والسعي في الأرض لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية، على سبيل المثال، قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ لَيَقولُنَّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤفَكونَ**﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ فتبين الآية الكريمة القدرة الإلهية في خلق السماوات والأرض، وتفرد الخالق سبحانه وتعالى بالتصرف في جميع ما في الكون، وتسخير الشمس والقمر بأمره، وسعة حكمته.

ولا نغفل في هذا السياق عن أمر مهم وهو رعاية الخالق سبحانه وتعالى المتمثلة في التسخير، والتي نلتمس من خلالها رحمة الخالق بالإنسان، ونعمه التي ميز بها هذا المخلوق عن غيره من المخلوقات، مما يجعل الإنسان أكثر إحساساً بضعفه، وبحاجته إلى الرحمة الإلهية بشكل دائم ومستمر في جميع الأمور، قال تعالى: ﴿**أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم ما فِي الأَرضِ وَالفُلكَ تَجري فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَيُمسِكُ السَّماءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلّا بِإِذنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاسِ لَرَءوفٌ رَحيمٌ**﴾ [الحج: ٦٥]، تعيد الآية الكريمة نظر الإنسان برحمة الخالق جل في علاه، الذي سخر كل ما في الكون ليشمل ذلك التسخير الجو والبحر والبر؛ مما قد يجعل المؤمن يزداد إيماناً، ويسعى في الأرض إعماراً، وبتكرار مثل هذه الآيات الكريمة، وما فيها من تذكير للإنسان بنعم الله سبحانه؛ لا شك يجعل القارئ لها، والمتأمل في ملامحها يشعر بالمسؤولية، والأمانة الوظيفية التي كلف الله سبحانه وتعالى بها الإنسان عن غيره، فكما سُخرت لأجله هذه النعم دقها وجلها، ظاهرها وباطنها، ينبغي عليه أيضاً أن يحسن التعامل معها، ويوظفها في خدمة دينه ودنياه على الوجه الذي تحدده الشريعة الإسلامية ومقاصدها، التي تحفظ الإنسان وترعى كينونته، وتضمن له الاستقرار، والأمن والأمان، وتؤدي إلى البناء والعمران؛ "فالتسخير العمراني يحقق أهم ثلاثة مقاصد شرعية: وهي تحقيق غاية العمارة، وتنفيذ مهام الاستخلاف في الأرض، وتحقيق مقصد تكريم الإنسان على غيره من المخلوقات [1]".

المبحث الثاني: التفكر في الظواهر الكونية

جميع ما في الكون يدعو الإنسان إلى التفكر والتأمل في خلق الله سبحانه وتعالى، وبديع صنعه الذي أتقن صنع كل شيء، قال تعالى:﴿**إِنَّ فِي خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ الَّتي تَجري فِي البَحرِ بِما يَنفَعُ النّاسَ وَما أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَبَثَّ فيها**

[1] القحطاني، مسفر بن علي، الدين والحضارة حفظ العمران مقصد شرعي، ص30.

مِن كُلِّ دابَّةٍ وَتَصريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ ومن أساليب القرآن الكريم في دعوته إلى التفكر في الآيات الكونية: الأمر المباشر بالنظر، والأمر المباشر بالتفكير، والاستفهام الإنكاري أو التقريعي، والقسم بالمخلوقات للفت الانتباه إلى ما فيها من دلائل باهرة على قدرة الله عز وجل، وتسمية سور القرآن الكريم بأسماء الكائنات الحية والظواهر الطبيعية، وذم الذين لا ينظرون ولا يتفكرون ولا يعتبرون، وتكرار الكلمات والمعاني المحفزة على التعقل والنظر [2]. كما يبلغ عدد"الآيات الكونية في القرآن الكريم حوالي ثلاثمائة وألف، وهذا العدد من الآيات يجعلنا مكلفين أن نتفكر فيها، ونُعمل العقل لنصل إلى الله سبحانه وتعالى؛ فهي عبادة من أرق العبادات لأنها تضعنا أمام عظمة الله عز وجل [3]"، ومن أهم مظاهر التفكر في الكون:

- الشمس والقمر، والليل والنهار: قال تعالى: ﴿**قُل أَرَأَيتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ اللَّيلَ سَرمَدًا إِلى يَومِ القِيامَةِ مَن إِلـٰهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتيكُم بِضِياءٍ أَفَلا تَسمَعونَ ۝ قُل أَرَأَيتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ النَّهارَ سَرمَدًا إِلى يَومِ القِيامَةِ مَن إِلـٰهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتيكُم بِلَيلٍ تَسكُنونَ فيهِ أَفَلا تُبصِرونَ**﴾ [القصص: ٧١-٧٢]؛ فالشمس التي تنير الأرض ضياءً، وتمد مختلف الكائنات الحية بما تحتاج إليه من نور وأشعة حرارية، والقمر كيف يبدأ بشكله الدقيق ثم يكتمل ثم يعود إلى شكله السابق، وكيف سخره الله سبحانه وتعالى للناس لمعرفة مواعيد أشهرهم، وأداء مناسكهم.
- البحر: قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحرَ لِتَأكُلوا مِنهُ لَحمًا طَرِيًّا وَتَستَخرِجوا مِنهُ حِليَةً تَلبَسونَها وَتَرَى الفُلكَ مَواخِرَ فيهِ وَلِتَبتَغوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرونَ**﴾ [النحل: ١٤]؛ المتأمل في البحار وما فيها من عجائب وأسرار ليدرك عظمة الخالق وحكمته ورحمته التي وسعت كل شيء، فكيف للأمواج لا تطفوا على الأرض وتُغرق جميع الخلق، وكيف جعلها خالقها مسخرة لخدمة الإنسان، ينتقل من خلالها من بلد إلى آخر، قال تعالى:﴿**وَمِن آياتِهِ الجَوارِ فِي البَحرِ كَالأَعلامِ ۝ إِن يَشَأ يُسكِنِ الرّيحَ فَيَظلَلنَ رَواكِدَ عَلى ظَهرِهِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكورٍ**﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣]، وكيف جعل سبحانه وتعالى في البحار من مختلف الحيوانات التي تمارس حياتها في قيعان البحار، وبأشكال متنوعة، وألوان وأحجام مختلفة، وسخر سبحانه وتعالى فيها منافع للإنسان، يأكل من خيراتها وثمارها.

[2] بخيت، صفية عبدالله، مفهوم التفكير في القرآن الكريم، ص6-7، بتصرف يسير.
[3] النابلسي، محمد راتب، مقومات التكليف، ص29.

- السماء: ﴿تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُروجًا وَجَعَلَ فيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]؛ سبحان من بنى السماء وجعلها من غير عمد مرئية، وزينها بالكواكب، والنجوم، وما يتشكل فيها من سحب وغيوم.

- الأرض: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرضَ وَجَعَلَ فيها رَواسِيَ وَأَنهارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوجَينِ اثنَينِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ [الرعد: ٣]؛ فالأرض بشكلها المسطح الكروي المناسب لجاذبية الإنسان ومختلف الكائنات الحية، وما فيها من مخلوقات، وكيف ذللها خالقها لخدمة الإنسان من أجل الإصلاح فيها وعمارتها بالخير والعمل الصالح، وجعلها مثبتة بالجبال الشاهقة الراسخة الممتدة داخل الأرض، والتي تقوم بوظائف لا يستوعبها عقل الإنسان. بالإضافة إلى ما تحتويه الأرض من أشجار ونباتات تتغذى عليها مختلف الكائنات، وكل مخلوق مسخر لخدمة المخلوق الآخر، وكيف بث سبحانه وتعالى فيها من كل الدواب بمختلف الأشكال والألوان، قال تعالى: ﴿وَالأَرضَ مَدَدناها وَأَلقَينا فيها رَواسِيَ وَأَنبَتنا فيها مِن كُلِّ شَيءٍ مَوزونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ وَالزَّيتونَ وَالنَّخيلَ وَالأَعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ [النحل: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَما ذَرَأَ لَكُم فِي الأَرضِ مُختَلِفًا أَلوانُهُ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَذَّكَّرونَ﴾ [النحل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت﴾ [الغاشية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَم يَرَوا إِلَى الطَّيرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ ما يُمسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ﴾ [النحل: ٧٩].

هذا ويكثر في القرآن الكريم الاستشهاد بطرح التساؤلات المتعلقة بالتفكر، وإمعان النظر في الاستدلال بخلق الله سبحانه للكون، وتسخير ما فيه للإنسان؛ مما يقرر للعقل التوافق والتوازن بين تسخير الكون، والسنن الحياتية للأفراد والمجتمعات التي لا تتغير، أو تتحول. وجاءت هذه المنهجية التساؤلية في القرآن الكريم في العديد من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ لَيَقولُنَّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤفَكونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ يولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهارِ وَيولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجري إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعمَلونَ خَبيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]، وفي تكرار هذه المنهجية التي تبدأ بالتفكر والتعقل والتأمل لاكتساب العلم، وتنتهي بالعمل والتطبيق والاستثمار قد يصل الإنسان إلى الفهم بالسنن الإلهية في التسخير، والإدراك الكلي للوظيفة الإنسانية، وتحقيق المقاصد التسخيرية التي من أهمها استغلال النعم وتوظيفها بما يخدم العقيدة والعمران؛ "فالإنسان بهذا الاستخلاف وتلك السيادة يملك بعقله الذي وهبه الله له

توظيف بعض السنن ببعض، والاستعانة بما عليها حتى يكون مسخرا لها ولا تكون هي مسخرة له، وساعتها سيكون من أهل النصر [1]".

كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرضَ وَجَعَلَ فيها رَواسِيَ وَأَنهارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوجَينِ اثنَينِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ ۝ وَفِي الأَرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنّاتٌ مِن أَعنابٍ وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صِنوانٌ وَغَيرُ صِنوانٍ يُسقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَها عَلى بَعضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ**﴾ [الرعد: ٣-٤]، يقول القِنَّوجي في تفسيره لهذه الآيات الكريمة: "(لقوم يعقلون) أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات، أي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها، خص هذا بالعقل والأول بالتفكر لأن الاستدلال باختلاف النهار أسهل، ولأن التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب، فناسب تقديم التفكر على التعقل [1]". وقال تعالى: ﴿**وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزواجًا لِتَسكُنوا إِلَيها وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ**﴾ [الروم: ٢١] "(لقوم يتفكرون) أن قوام الدنيا بوجود التناسل، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له، يتحصل عنه، أو لأن الفكر يؤدي إلى الوقوف على المعاني المطلوبة من التأنس والتجانس بين الأشياء كالزوجين وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام [2]".

قال تعالى: ﴿**إِنَّ في خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلبابِ ۝ الَّذينَ يَذكُرونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعودًا وَعَلى جُنوبِهِم وَيَتَفَكَّرونَ في خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ رَبَّنا ما خَلَقتَ هذا باطِلًا سُبحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] "وبين التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار؛ فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانباً من مشهد الذكر، فيوحي بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين: الحقيقة الأولى: أن التفكر في خلق الله، والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله المبدعة، وهي تحرك هذا الكون، وتقلب صفحات هذا الكتاب هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر. ولو اتصلت العلوم الكونية، التي تبحث في تصميم الكون، وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسراره وطاقاته، لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره، والشعور بجلاله وفضله؛ لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون، ولاستقامت الحياة -بهذه العلوم -واتجهت إلى الله [3]".

---

[1] الغريب، رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، ص١٨٦-١٨٧.
[1] القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، ج7، ص17.
[2] القِنَّوجي، المرجع السابق ج10، ص237.
[3] سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ج1، ص545.

وفي الغوص في العلوم الفلكية، والنظر والتأمل فيها، واستكشاف الكون، وما يحتويه من أجرام سماوية كالشمس والقمر، وكيف ذلَّلهما الخالق سبحانه وتعالى، وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول في أوقات معينة تخدم الإنسان، وكيف جعلهما بأشكال مختلفة؛ قد يصل الإنسان إلى أقصى درجات الإدراك نحو عظمة الخالق بديع السماوات والأرض، وأنه وحده المستحق للعبادة والإفراد بالألوهية، وكلما تعمق أكثر في تفاصيلها وتفاصيل خلقها؛ كلما أدرك حقيقة عظمة الخالق، وفضله سبحانه وتعالى، الذي سخر تلك النعم وذلَّلها وفق حكمته الإلهية؛ مما يدفع الإنسان إلى وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ويسعى في الأرض إصلاحاً وتعميراً، ويبذل طاقته ويوظف إمكانيته نحو ما يرضي خالقه، ويحقق غاية وجوده في الأرض، ويبدع في البناء، ويساهم في الرقي الحضاري، والازدهار العمراني، الذي سينال نتيجته الأجيال التي تليه أيضاً، ويصبح مثال يحتذى به؛ حيث نرى في وقتنا الراهن "متتبعو الآثار والسائحون ينبهرون وتأخذهم الدهشة من عظمة آثار المسلمين العمرانية، وما احتوت عليه من زخرفيات وجماليات بديعات رائعات، كالمقرصنات، والمدليات ذوات الإتقانات الهندسية الرائعة، وكالفسيفساء التي تزين رسومها البديعة المدهشة المسطحات الداخلية للمباني، سواء كانت مستويات، أو منحنيات، أو مكورات، أو مجوفات [4]".

والتفكر في الظواهر الكونية وفي خلق الله سبحانه وتعالى من أهم العبادات الباطنة التي تكون داخل الإنسان، ويدركها في نفسه، والتي جاء الأمر بها في القرآن الكريم؛ لما تقوم به من تثبيت الإيمان في قلب المسلم، وخشوع القلب لرب العالمين والتقرب إليه سبحانه وتعالى والخوف منه، وتؤدي إلى إدراك قدرة الخالق وعظمته وبديع صنعه وإتقانه، وما يؤخذ من عبر وعظات، وتسجيل ملاحظات تنمي العقل وتمتع العاطفة، والتي يستدل بها قدرة الخالق سبحانه في الخلق ولطفه وسعة رحمته، وهذا يستوجب عبادته وحده سبحانه، والخضوع لسلطانه؛ فكلما كان الإنسان أكثر تفكراً في خلق الله سبحانه وتعالى كلما كان أكثر خشية؛ "فهذا الكون بكل مفرداته يناسب كل الناس، ذلك أن الخطاب في القرآن عالمي الزمان، والمكان والأشخاص، فيستطيع العالم، والمتخصص، والأمي، والمزارع، وصاحب الصنعة، والصغير والكبير، كل حسب طاقته أن يتفكر ويفكر ليصل من قراءة الكون إلى الله [1]".

هذا ويمدح القرآن الكريم المؤمنين الذين يتفكرون في خلق الله سبحانه وبديع صنعه، ويذم من لا يتفكر في آيات الله الشرعية والكونية، ومن لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على كمال ذاته وصفاته، قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ يَمُرّونَ عَلَيها وَهُم عَنها مُعرِضونَ**﴾ [يوسف: ١٠٥]؛ حيث أنكر القرآن الكريم عدم تفكر المشركين في آيات الله سبحانه وتعالى والذي تسبب في غلوهم وإعراضهم عن

[4] الدمشقي، الحضارة الإسلامية، ص639.
[1] حنايشة، عبدالوهاب محمود إبراهيم، التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، ص46.

الحق، والجحود والنكران، قال تعالى: ﴿**وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرونَ بِها وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بِها أُولئِكَ كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الغافِلونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ فعند التفكر في الكون وما يحويه من مخلوقات، يدرك الإنسان أن هذا الخلق لا يأتي إلا من صفة الكمال التي تفرد بها خالق الكون ومليكه سبحانه وتعالى المتصف وحده بالكمال، قال تعالى:﴿**أَوَلَم يَتَفَكَّروا في أَنفُسِهِم ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما إِلّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثيرًا مِنَ النّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِم لَكافِرونَ**﴾ [الروم: ٨].

هذا ويدعو القرآن الكريم إلى التفكر بنماذج عاثت في الأرض فساداً، لأخذ العبرة والعظة، وكيف وقع عليهم العذاب نتيجة ما قدمت أيديهم، ومن تلك النماذج قوم فرعون؛ حيث يضرب القرآن الكريم المثل في العذاب الذي وقع على قوم فرعون بسبب كفرهم بالله جل في علاه، وفسادهم في الأرض؛ ليكون النموذج الظاهر للأجيال التي تليه والذي يؤكد وقوع سنة الله سبحانه وتعالى في إهلاك وتدمير عمارة وحضارات الأمم والقرى الطاغية والظالمة حتى وإن كانت تتحلى بأعلى معايير التقدم الحضاري والمعماري المادي لا المعنوي، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتغير على مر السنين والأعوام، فعذاب الأمم الكافرة ولو تأخر إلا أنه واقع بهم لا محالة، وقد يؤخر الله سبحانه وتعالى العقاب لحكمة يقتضيها سبحانه وتعالى، وهذا لا يعني أن العذاب لن يحل عليهم بل سيكون في وقته المناسب، قال تعالى: ﴿**كَدَأبِ آلِ فِرعَونَ وَالَّذينَ مِن قَبلِهِم كَفَروا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنوبِهِم إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَديدُ العِقابِ**﴾ [الأنفال: ٥٢].

كما يصف القرآن الكريم ما تتمتع به حضارة فرعون وقومه من مبان ومنشآت كانت تشبه الجبال في قوتها وصلابتها، قال تعالى: ﴿**وَفِرعَونُ ذُو الأَوتادِ**﴾ [ص: ١٢]، وما أنعمه الله سبحانه وتعالى عليهم من البساتين والأنهار التي لم يغفل عنها فرعون وأدرجها تحت سلم التكبر والبطش والغرور والتملك، مخاطباً قومه بكل غرور واستعلاء أنها تجري من تحت عرشه، وإن ملك مصر إنما له جميعاً حسب زعمه وتماديه في التكبر والجحود، والتهديد بالقوة، وعدم الخروج عن حكمه ومعاندته، قال تعالى: ﴿**وَنادى فِرعَونُ في قَومِهِ قالَ يا قَومِ أَلَيسَ لي مُلكُ مِصرَ وَهـٰذِهِ الأَنهارُ تَجري مِن تَحتي أَفَلا تُبصِرونَ**﴾ [الزخرف: ٥١]، متجاهلاً هو وقومه نعم الله عليهم، وأن الله سبحانه هو من تكرم عليهم ومدهم بالنعم التي قابلوها بالكفر والجحود، فبدل سبحانه تلك النعم بالنقم، وأهلكهم بذنوبهم، تاركين تلك العيون والأنهار التي كانت تجري من تحتهم، والزروع والثمار، وما يتمتعون به من حضارة وعمارة، وغيرها من النعم التي لم يستشعروا من خلالها فضل الله عليهم ورحمته ونعمه التي لا تعد ولا تحصى؛ فأورث الله سبحانه وتعالى تلك النعم لقوم آخرين من بعد قوم فرعون، قال تعالى: ﴿**كَم تَرَكوا مِن جَنّاتٍ وَعُيونٍ**

﴿ وَزُروعٍ وَمَقامٍ كَريمٍ ﴿ وَنَعمَةٍ كانوا فيها فاكِهينَ ﴿ كَذلِكَ وَأَورَثناها قَومًا آخَرينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرعَونَ عَلا فِي الأَرضِ وَجَعَلَ أَهلَها شِيَعًا يَستَضعِفُ طائِفَةً مِنهُم يُذَبِّحُ أَبناءَهُم وَيَستَحيي نِساءَهُم إِنَّهُ كانَ مِنَ المُفسِدينَ﴾ [القصص: ٤]، بيان مدى تكبر فرعون وجبروته وطغيانه في الأرض وإفساده فيها، وتوضيح لسياسة من سياسات فرعون المستبدة والتي قسم فيها شعبه إلى أقسام متفرقة، وطوائف مختلفة منهم الضعيف، ومنهم القوي الذي يطغى على الضعيف ويضطهده ويقتل أبناءه ويبقي نساءه على النهج الذي يريده فرعون في تقليل التكاثر والنسل في البلاد؛ فبالتالي تقل نسبة من ينافسه على الحكم والملك الذي يظن بجهله أنه سيبقى له إلى يوم الدين.

هذا ولم يكتف فرعون بتلك الأعمال الدكتاتورية والاستبدادية الفاسدة بل بلغ من الكبر والغرور ما لم يبلغه أحد من العالمين، وأصدق برهان على ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقالَ فِرعَونُ يا هامانُ ابنِ لي صَرحًا لَعَلّي أَبلُغُ الأَسبابَ ﴿ أَسبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ موسى وَإِنّي لَأَظُنُّهُ كاذِبًا وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرعَونَ سوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبيلِ وَما كَيدُ فِرعَونَ إِلّا في تَبابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]؛ حيث أمر فرعون وزيره هامان أن يبني له بناء ضخماً وشاهقاً يصل إلى السماء ويتداخل بالسحاب من طوله وضخامته حتى يكون له من الطريق ما يصل إلى الإله المعبود فيطلع عليه بنفسه، وما أمره بذلك إلا تكذيباً لموسى عليه السلام واستكباراً وغروراً وإعجاباً بنفسه مؤدياً به إلى الطغيان والجحود الذي يشقيه في دنياه وآخرته. كما نلتمس من الآية الكريمة التقدم المعماري والتطور في الإنشاء الذي كان عليه قوم فرعون؛ حيث ما أمر به فرعون وزيره هامان بأن يبني له هذا البنيان الضخم والذي يصعب بناؤه، يؤكد مقدرتهم على بناء وإنشاء مثل هذا الصرح، المصنوع من الحجر الأحمر، قال تعالى: ﴿وَقالَ فِرعَونُ يا أَيُّهَا المَلَأُ ما عَلِمتُ لَكُم مِن إِلهٍ غَيري فَأَوقِد لي يا هامانُ عَلَى الطّينِ فَاجعَل لي صَرحًا لَعَلّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ موسى وَإِنّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكاذِبينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَانتَقَمنا مِنهُم فَأَغرَقناهُم فِي اليَمِّ بِأَنَّهُم كَذَّبوا بِآياتِنا وَكانوا عَنها غافِلينَ ﴿ وَأَورَثنَا القَومَ الَّذينَ كانوا يُستَضعَفونَ مَشارِقَ الأَرضِ وَمَغارِبَهَا الَّتي بارَكنا فيها وَتَمَّت كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسنى عَلى بَني إِسرائيلَ بِما صَبَروا وَدَمَّرنا ما كانَ يَصنَعُ فِرعَونُ وَقَومُهُ وَما كانوا يَعرِشونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧]؛ تصف الآية الكريمة ما حل بقوم فرعون من عذاب أليم، وإغراق في البحر دون استطاعة فرعون أن يحمي نفسه من العذاب ويحمي منشآته وقصوره ومبانيه؛ وعلى الرغم من قوة فرعون وتفوقه في فنون العمارة وما بنوه من مبان وبيوت ومنشآت ضخمة ورفيعة إلا أن مصيرها كان الخراب والدمار الذي لم يبق له أثر، فتهدمت بيوتهم وأصبحت فارغة من سكانها، وذلك بما قدمت أيديهم من ظلم وبطش

وفساد، وأن الله ليس بظلام للعبيد، قال تعالى: ﴿فَتِلكَ بُيوتُهُم خاوِيَةً بِما ظَلَموا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَعلَمونَ﴾ [النمل: ٥٢].

خاتمة

لقد تبين من خلال هذا البحث مدى عناية القرآن الكريم بالتفكر في خلق الله سبحانه وتعالى، وفي الظواهر الكونية التي يستشعر الإنسان من خلالها نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان، وبديع صنعه، وعظمته، وعجائب قدرته؛ حيث وضح البحث مفهوم التفكر وأهميته في القرآن الكريم، والمظاهر الكونية التي تدعو إلى التفكر، كما ينتهي البحث إلى العديد من النتائج والتوصيات.

النتائج

- التفكر من أهم العبادات التي يتقرب بها الإنسان من خالقه.
- تفنن القرآن الكريم بأساليب تدعو إلى التفكر والتعقل في الكون، وإدراك عظمة الخالق وبديع صنعه.
- مدح القرآن الكريم المتفكرين في خلق الله سبحانه وتعالى.
- ورود العديد من الآيات الكريمة التي تبين أهمية التفكر في الظواهر الكونية.

التوصيات

- الدعوة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وقدرة الخالق سبحانه، وبديع صنعه.
- دعوة الباحثين إلى إجراء المزيد من الأبحاث التي تبين أهمية التفكر في القرآن الكريم، وتوضح مداركه.
- الدعوة إلى تعزيز مفهوم التفكر لدى الإنسان، والحث عليه في مختلف الوسائل الإعلامية.
- دعوة المؤسسات التعليمية بعدم الإغفال عن عبادة التفكر، وإدخالها ضمن المناهج التعليمية.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

1. بخيت، صفية عبدالله، مفهوم التفكير في القرآن الكريم، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2014م).
2. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ/1983م).
3. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تـ: أحمد عبدالغفور، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1407هـ/1987م).

4. حنايشة، عبدالوهاب محمود إبراهيم، التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (فلسطين: جامعة النجاح الوطنية كلية الدراسات العليا، 2009م).
5. الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، (دمشق: دار القلم، ط1، 1418هـ/1998م).
6. دويدري، رجاء وحيد، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية، (دمشق: دار الفكر، ط1، 1421هـ/2000م).
7. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف، المفردات في غريب القرآن، تـ: صفوان الداودي، (بيروت: دار القلم، ط1، 1412هـ).
8. رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين، تفسير القرآن الحكيم -تفسير المنار، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1990م).
9. السعدي، أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تـ: عبدالرحمن بن معلا، (د.م: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).
10. سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط17، 1412هـ).
11. شريف، مروان محمد، طرائق تنمية التفكير في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، (الأردن: جامعة اليرموك، 2014م).
12. صديق خان، أبو الطيب محمد صديق خان حسن القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د. ط، 1412هـ/1992م).
13. أبو العباس، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (بيروت: المكتبة العلمية، د. ط، د.ت).
14. الغريب، رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، (القاهرة: دار المقاصد، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠١٥م).
15. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تـ: عبدالسلام محمد، (د. م: دار الفكر، د. ط، 1399هـ/1979م).
16. القحطاني، مسفر بن علي، سلسلة المؤتمرات، الدين والحضارة حفظ العمران مقصد شرعي، (د. م: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1440هـ/2018م).
17. المجالي، محمد خازر، مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم دراسة موضوعية، (د. م: مجلة الشريعة والقانون، العدد 23، 1426هـ/2005م).
18. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ).

19. النابلسي، محمد راتب، مقومات التكليف، (دمشق: دار المكتبي، ط1، 2005م).
20. الهيشان، محمود محمد، جوانب الفكر والتفكر في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (الأردن: جامعة اليرموك، 1996م).